الى معالى وزير المعارف

التعليم الزراعى

دعوتك لما براني البلاء ... وأوهن رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيهما في النعال ... فقد صار مشيهما في القيود
وكنت من الناس في محفل ... فها أنا في محفل من قرود
فلا تسمعن من الكاشحين ... ولا تعبأن بعجل اليهود
وكن فارقاً بين دعوى أردت ... ودعوى فعلت بشأو بعيد
(المتنبي)

مضى ربع قرن والتعليم الزراعى في مصر — عدا الجامعي منه — واقف في مكانه لا يتحرك ولا يتزحزح، ولا يشعر بأن الحوادث حواليه تنطلق إلى غايتها في عنفوان وتشتد إلى غرضها في عزم. أما هو فقد تخلف في سبات عميق لا يخضع لسنة الطبيعة ولا ينزل على حكم التطور. ولشدّ ما آلمني — حين قُدّر لي أن أغتمر في غمار هذا النوع من التعليم — أن أجده متفككا يتداعى من هوان ومن ضعف؛ ولبثت ما لبثت أسوق النفس سوقاً إلى غاية، وأنا أرى وأحمل النفس على الصمت، ثم أنشر رأيي على صحابتي — بين الحين والحين — فلا أجد إلا الجمود الذي نفثه الاستسلام، والجمود الذي ولدته سخرية الرئيس من آراء مرءوسيه والتهكم بها والامتهان لها، نتيجة التزمت والكبرياء. والآن هبت الوزارة، أو بالأحرى مراقبة التعليم الزراعى، تسعى إلى تهذيب هذا النوع من التعليم وتريد إصلاحه، فأردت أن أتنافل إلى قراره على أستطيع أن أبدي سوءاته أو أن أنفي عنه خبثه، وما لي بعد ذلك إلا أجر العامل المجد أو جزاء الناصح الأمين

والتعليم الزراعى في مصر — عدا الجامعي منه — يتكون من المكاتب الزراعية ومن المدارس المتوسطة، وسأحاول جهدي أن ألم شعث الموضوع في نظرة فاحصة سريعة.

أولا: المكتب الزراعى

فكرة الإنشاء

نشأت فكرة المكتب الزراعى — أول مانشأت — سنة ١٩٣٥، وابتدأ تنفيذ هذه التجربة في سنة ١٩٣٦. وفي الحق لقد كانت الفكرة جميلة تخلب النظر والقلب معاً وتستحق الثناء والشكر، لأنها تحقق غرضاً سامياً، وتملأ فراغاً استشعرته مصر الزراعية منذ زمان. وهي في لبّها ترمي إلى أن تنشئ طائفة من أبناء صغار الزراع تنشئة تتفق والنهضة الحديثة التي قامت البلاد فيها شوطاً غير قريب، ثم تدس بهم بين آبائهم وأهليهم لينهضوا بهم وليكونوا نواة للعمل العظيم الذي ينتظرهم بعد، وهو اطّراح الطرق الزراعية العتيقة والأخذ بالحديث منها. غير أن شيئاً عدل بالغرض عن وجهته الأولى فأصبح يرمي إلى تخريج فئة من أشباه الموظفين والعمال يقومون على إدارة الدوائر والضياع والبساتين. واتخذت التجربة سبيلها في مكتبين ملحقين بمدرستي الزراعة المتوسطة بالمنيا ودمنهور، والتحق بالمكتبين صبيان أتموا التعليم الإلزامي لينخرجوا بعد سنوات ثلاث

وارتطم المشروع بالصدمة الأولى، بقلة عدد التلاميذ، فكاد يهوي، لولا أن حكمة القائمين على العمل تداركته ففتحت أبواب المكتبين على مصاريعها لأبناء الفلاحة والعمال والصناع والزراع على السواء، فتم عدد التلاميذ عشرة في كل من المكتبين وسار دولاب العمل ...

نظام الدراسة وصورتها

الآن حُقّ لابن الصانع والعامل و ... أن يلتحق بالمكتب الزراعى ليخرج بعد ثلاث سنوات عاطلاً لا يستطيع أن يجد عملاً أو أن يعين أباه أو أن يفيد وطنه أو يحقق الغرض الذي من أجله أنشئ المكتب. وماذا يفيد الصانع أو العامل أو الزارع نفسه أن يلقى ابنه — وقد شب وترعرع — يغدو إلى المكتب ويروح إلى الدار وهو في حاجة شديدة إليه، فراح كل منهم يحول بين ابنه وبين المكتب؛ فأوشك هذا العمل — وهو جليل — أن يتوارى عن الأنظار لولا أن أدركته حكمة الرؤساء مرة أخرى، فخولوا التلاميذ أن يحضروا متى شاءوا وأن يتغيبوا عن الدراسة متى أرادوا، دون أن يبدي الواحد منهم عذراً، أو أن يحتمل لوماً وتأنيباً، أو أن يؤاخذ أبوه؛ فانطلق التلميذ إلى غيه يهرب حين يلذ له الهرب، ويسكن إلى أمه أو أبيه حين يطيب له ذلك. وهكذا تداعت أبسط مبادئ الأنظمة، واختل نظام العمل،

وانهد الركن الركين فى سير الدراسة ، ولست أدرى ، ماذا عسى أن يكون هذا الطفل بعد حين وهو قد درج على ألا يأبه لنظام ولا أن يهتم بتيماد ! واندفع الصبى وأبوه يتنالبان — وقد نام الرقيب — فينطوى العام الدراسى كله ولمّا يحضر التلميذ غير شهر أو بعض شهر، ثم هو لايحمل مئونة الاختبار ولا نصب الاستذكار والمطالعة ولا يصبر على قسوة العمل ، فهو منقول إلى السنة التالية بدون شرط ولا قيد ، وتنقضى السنوات الثلاث فإذا الصبى المتخرج فى المكتب جاهل يرتدغ فى جهله

وتساهل القانون مرة أخرى وأغضى ، فصرح للتلاميذ أن يحضروا دروسهم فى أشغال بالية ، حفاة عراة الرءوس ، تأكلهم الوساخة و ... على حين أن الصوت قد بُحّ من طول ما نادى بوجوب تنظيف الفلاح وترتيب حياته على نسق ، أما هنا فأصبح الإهمال والقذارة قانوناً ...

وانطوت السنون فإذا المكتب كله ينضم على أحد عشر بينهم الناظر وليس بينهم أى مدرس، فمدرسو المكتب هم بعض مدرسى مدرسة الزراعة المتوسطة

ومن غريب ما يروى أن ناظر هذا المكتب كان يقضى يومه لا عمل له إلا أن يكتب الرسائل إلى الوزارة ويستقبل الرسائل منها . ولِمَ ؟ لأن الصبية يقضون يومهم فى الحقل أو فى مدرسة الزراعة المتوسطة ، فهناك يشهدون التجارب العملية ويعملون بأيديهم ، وهنا يتلقون دروسهم على أساتذتهم

عجيب أن نخلى فنقول إن التلميذ فى هذه السن الصغيرة يستطيع أن يدرك التجارب الزراعية الحديثة ، أو أن يطبقها ويقارن بينها وبين القديمة ليعرف الغث من السمين ، وعجيب أن نخلى — مرة أخرى — فنقول إننا نستطيع أن نهيئ هذا الصبى فى ثلاث سنوات ليكون زارعاً من الطراز الأول !

وإذن يتراءى لنا — لأول وهلة — قصر مدة الدراسة ، فما التلميذ بمستطيع أن يستوعب شيئاً ، ولا المدرس بمستطيع أن يحشو ذهنه الغض

منهاج الدراسة

هذا الصبى الصغير قد تثقف ثقافة أولية بحتة لم يلمس فيها رهقاً ولا عنتاً ، وهو حين التحق بالمكتب الزراعى لم يقدر أن يحمل ما لا طاقة له به

هنا ، فى هذا المكتب ، يزج الصبى تحت ثقل ينوء به ، فالعلوم كثيرة متراكبة ومتشابكة ، ومواد العلم الواحد أو فرع العلم طويلة مملة ، فإذا وراء أن يدرس التلميذ فى المكتب — مثلاً — منهجاً طويلاً فى مسك الدفتر فيه : اليومية ، واليومية الزفرة ، والأستاذ ، وحساب الأرباح والخسائر ، والميزانية ، والأوراق المالية و ... مما يبهظ عقل التلميذ ويتركه فى حيرة من أمره ويطغى على وقته ؟ وماذا وراء أن يتلقن الصبى فى مكتبه ما يتلقاه طالب الزراعة المتوسطة سواء بسواء ؟ وهكذا نرى المنهاج فى كل فروع الدراسة طويلاً ومعقداً ومملاً ، حتى منهاج الزراعة نفسها ؛ وقد لا يرتبط فى كثير من الأحايين بالناحية العملية ، وهو إن مَتّ إليها بسبب فلكى يرى التلميذ التجربة مرة واحدة ثم لا يعود ؛ فى حين أن ما ينبغى هو أن يشهد التجربة ويعملها بيده مرة ومرة ثم لا يبتعد عنها ، وأن يعرف أشياء كثيرة عن منتجات الألبان وتربية الماشية ودودة القز والنحل ثم الصناعات الزراعية مما يجهله الزارع أو يهمله أو لا يعترف بفائدته الحيوية والمادية

ثم كيف يأخذ المدرس على عاتقه تدريس مادة لهؤلاء التلاميذ الصغار إن لم يكن بين أيديهم مراجع يرجعون إليها إن أعوزهم الأمر أو خانتهم الذاكرة ؟ لا ريب أن التلميذ لا يستطيع أن يحفظ كل ما يلقى عليه وهو كُثُر ؛ والمدرس لا يستطيع أن يرهق التلاميذ بالشراء أو الطبع وهو يعلم أنهم فقراء يجدون مس العوز، وأن المكتب يقوم على تربيتهم مجاناً ، بل ويحبوهم بالمأكل والملبس . إذن لا بد أن يجد أسهل سبيل يبلغ به غايته ، وهو الإملاء

وهنا ... هنا فقط شغلت الإملاء — دون الشرح — كل وقت الصبى ، وانحى كل مبدأ أو مذهب يرتكن إليه التدريس الفنى ؛ وإذن ذهب التلميذ يكد ذهنه ليحفظ تجارب وعمليات وأسماء وموضوعات سطرت على القرطاس وعمى بصره عن أن يراها فى الحقل . وانتهت الحياة به إلى ما ينتهى إليه كل طالب حين يخرج من مدرسته ، لا يتعلم إلا أنه فوق مستوى الفلاح ، فهو يأبى أن ينزل إليه وهو لا يعرف أن يسمو عنه .

« الموضوع تكملة »

(*)